العلاقة التاريخية بين
جمال الدين الأفغانى وناصر الدين شاه

د. مريم محمد زهيرى *

جمال الدين الأفغانى زعيم وطنى ترك أثرا كبيرا على جميع حركات الإصلاح والتحرر التى ظهرت فى البلاد الإسلامية فى العصر الحديث ، و قد تجول فى البلاد الإسلامية ، وتحدث مع عدد من حكامها ، ولكن نوع الصلة التى كانت بينه وبين ناصر الدين شاه - الملك الإيرانى فى عصره - جديرة بالدراسة حقا ،فقد بدأت بإعجاب من الشاه بأفكار الأفغانى وشخصيته وعلمه ، ثم انتهت بعداء شديد ، أدى إلى أن حرص الأفغانى على قتل ناصر الدين شاه إنتقاما لما لاقاه منه .

هدف البحث

و يهدف هذا البحث الى توضيح طبيعه العلاقه بين جمال الدين الأفغانى وناصر الدين شاه ، وتوضيح مدى اتفاقهما أو اختلافهما عن الإطار العام الذى حدده الإسلام

* أستاذ مساعد بقسم اللغات الشرقية . كلية الآداب . جامعة القاهرة .

لما يجب أن تكون عليه العلاقه بين الزعيم الإسلامى والحاكم ، ثم بيان المنهج الإسلامى الأمثل للنهوض بالمسلمين . وذلك كله عن طريق الرجوع إلى كتاب الله ، وسنة رسوله (ص).

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الدراسات السابقة لم تحاول دراسة العلاقة بين جمال الدين وناصر الدين شاه، فى ضوء التوجيهات الإسلاميه ، ولم تحاول كذلك تقييم أقوال الأفغانى أو أعماله بمعايير الإسلام ، لذلك أقدم هذا البحث كمحاولة أولى فى دراسه هذا الجانب .

وقبل دراسه العلاقة بينهما لابد من تقديم تعريف موجز بجمال الدين الأفغانى

جمال الدين الأفغانى :

هناك اختلاف فى موطنه ، فالكتب العربية تذكر أنه ولد فى أسعد آباد من قرى كابل عام ١٢٥٤ هـ ." وتذكر أن أسرته أفغانيه انتقلت إلى كابل وهو فى سن الثامنة، وظل عشر سنوات يدرس العلوم الإسلامية كالأدب العربى والتاريخ والتفسير والحديث والفقه والأصول وعلم الكلام والعلوم العقلية من منطق وفلسفة ، وانتهى من دراستها جميعا فى الثامنة عشرة من عمره . ولكن كثيرا من الإيرانيين يعتقدون أنه ولد فى أسعد آباد على مسافة ثمانية فراسخ من مدينه همدان . "[1] وهناك عدد من الشواهد التى تثبت أن جمال الدين إيرانى ، ولكن ليس هذا موضع تفصيلها . [2]

كان جمال الدين كثير السفر والتجول فى البلاد الإسلامية ، " ففى آخر عام ١٢٨٦هـ . جاء إلى مصر وظل فيها فترة قليلة . والتقى بالعلماء وطلاب العلم."[3] ثم رحل إلى استانبول ، فبلغها عام ١٢٨٧هـ. وكان قد سبقه إليها صيته العريض ، فاستقبله وجوه القوم فيها استقبالا حارا ، وسرعان ماعين فى مجلس التعليم ، ودعى

---

(١) يحيي آرين پور : أزصباتانيما جـ١ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ (باختصار)

(٢) وردت أهم هذه الشواهد في كتاب : جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني تأليف ميرزا لطف الله خان ، وترجمه صادق نشأت وعبد النعيم حسنين من ص٩-٢٦ .

(٣) يحيي آرين پور : أزصبا تانيما جـ١ ص ٣٦٨ .

إلى إلقاء محاضرات فى مسجد آياصوفيا ومسجد أحمديه ، وألقى على الطلبه فى دار الفنون وبمحضر كثير من علية القوم محاضرة فى فائدة الفنون والصناعات ، فذكر فيها النبوة ، وعدها من بين الوظائف الاجتماعيه ، فانتهز الفرصه ، شيخ الإسلام حسن فهمى ، وكان ينفس على السيد الأفغانى ازدياد شهرته ونفوذه ، فرماه بالدعوة إلى آراء هدامة ، إذ جعل النبوة من الصناعات . وعرف جمال الدين بالدسائس التى حاكها له خصومه ، فاستقر عزمه على مغادره استانبول ، وتوجه إلى القاهره ، فتلقاه أولو الأمر والطبقات المثقفة بالحفاوة والترحاب ، وأخذ يعلم الشباب الذين التفوا حوله فى بيته ، ويلقى عليهم أحاديث حرة فى فروع الفلسفة والدين العالية ، ويرشدهم فى الوقت نفسه إلى سبيل الكتابة والتحرير .

أما فى ميدان السياسة فقد أثر جمال الدين فيمن حوله ، وسعى إلى إيقاظ الشعور الوطنى ، وإثارة الرغبة فى الحصول على نظم حرة ودستورية . وكان له أيضا أثر فى الحركة الوطنية التى شبت عام ١٨٨٢ ، وأدت إلى ضرب الإسكندرية بالقنابل وموقعه التل الكبير واحتلال الإنجليز لمصر . وقد أخرج هذا المهيج الملهب للخواطر من مصر قبيل ذلك ، أى فى سبتمبر عام ١٨٧٩ ، ذلك أن جهوده السياسية كانت شجى فى حلق الممثل البريطانى ، كما كان بعثه للدراسات الفلسفية مثيرا لحفيظة أهل الجمود فى الأوساط الأزهرية ، فنفى من مصر بسعاية الإنجليز ، واعتقل فى الهند فى حيدر آباد ثم كلكته . ثم سمح له بمغادرتها بعد قمع فتنة عرابى . " (٤)

وبعد ذلك سافر الأفغانى إلى أوروبا ، وذهب إلى لندن أولا ، وبعد قليل سافر إلى باريس ، ولحق به الشيخ محمد عبده - الذى كان قد نفى إلى سوريا - وفى باريس أصدر صحيفة العروة الوثقى ، فكان جمال الدين يملى موضوعاتها ومحمد عبده يكتبها ، ولكن انجلترا وضعت العراقيل فى سبيل نشرها ووصولها إلى القراء ، حتى توقفت بعد صدور ثمانية عشر عددا فقط. . " (٥)

---

(٤) جولد تسيهر : مادة "جمال الدين الافغاني" دائرة المعارف الإسلامية ،المجلد السابع ص ٩٦ من الترجمة العربية .

(٥) أرين پور : أزصبا تانيما جـ١ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ (باختصار)

" ومع ذلك فقد كان لهذه الصحيفة أثر عظيم فى إذكاء الآراء الحرة المناهضة للإنجليز فى الأوساط الإسلامية ، بل يمكن أن تعد باكورة الحركات القومية فى الممتلكات الإسلامية التابعة لانجلترا" (٦)

وبعد ذلك تم لقاؤه بناصر الدين شاه ، وسنوضح ذلك فيما بعد ، وبعد أن طرد الأفغانى من إيران بسبب غضب السلطان عليه لخوفه من ثورة الناس عليه بتأثير أقوال الأفغانى ، توجه الأفغانى إلى انجلترا مرة أخرى ، وبعد ذلك سافر إلى القسطنطينيه بدعوة من السلطان عبد الحميد ، وظل هناك السنوات الخمس الأخيرة من حياته .

"وفى رجب عام ١٣١٤ هـ . أصيب السيد جمال الدين بمرض فى لسانه ، ولم يذهب لعيادته إلا عدد قليل من أصدقائه ، حتى توفى فى الخامس من شوال عام ١٣١٤ هـ . بسبب ذلك المرض أو نتيجه تسمم بعد عملية جراحية ، ودفن بدون أية مراسم ، وصدر الأمر إلى الصحف العثمانية ألا تكتب عنه شيئا ." (٧)

وهكذا رحل الأفغانى فى صمت ، ولكن جهوده وأقواله ظلت ذات أثر كبير فى العالم الإسلامى ، ولعل أفضل من وصفه هو تليمذه محمد عبده فى مقدمته على ترجمة رساله الرد على الدهريين ، فقد وصفه بعدد من الصفات الحسنة ثم قال :

" ولكنه كان على فضله لا يخلو من حدة المزاج ، ولعلها كانت من أكبر الأسباب لما لاقاه من عواقب الوشاية . أما عن علومه فكان واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية ، وخصوصا الفلسفة القديمة وفلسفة تاريخ الإسلام والتمدن الإسلامى وسائر أحوال المسلمين ، وكان يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدا مع إلمام باللغتين الانجليزية والروسية . وكان كثير المطالعة ، وأكثر مطالعته فى اللغتين العربية والفارسية."(٨)

ويقول عنه العقاد : " والواقع أن السيد جمال الدين كان كما وصفه تليمذه الأكبر

---

(٦) جولد تسيهر : مادة " جمال الدين الأفغاني " دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٩٧.

(٧) آرين پور : ازصبا تانيما جـ١ ص ٣٧٩ .

(٨) محمد عبده : مقدمة ترجمة رسالة الرد علي الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني ص ١٤ .

الشيخ محمد عبده : " من نفسه الكبيرة فى جيش ". وهو الذى يرجع إليه الفضل الأول فى قيام الحركة الدستورية فى تركيا ومصر وإيران ، وهو الذى أثار نفوس الهنود المسلمين على الاستعمار الإنجليزى ، وقد خشيه سلطان تركيا وشاه إيران وخديو مصر والإمبراطورية البريطانية. " (٩)

هذا تعريف موجز بالأفغانى ، وسنعرفه بصورة أوضح من خلال دراسة علاقته بناصر الدين شاه ، وماتم أثناء ذلك من أحداث . وقبل ذلك سنذكر أهم سمات ناصر الدين شاه وأهم ماتميز به عصره ، لنعرف بعد ذلك كيف كانت الصلة بينهما .

ناصر الدين شاه :

كان ناصر الدين شاه قد جاوز السابعة عشرة بقليل عندما توج كملك إيرانى عام ١٢٦٤ هـ . وكان على وشك أن يبلغ عامه الخمسين فى الحكم عام ١٣١٣ عندما قتل . تمت فى عهده بعض الإصلاحات ، ودخلت بعض مظاهر المدنية ، ولكن حدث فى عهده أيضا ، ولا سيما فى نهايته ظلم شديد وتدهور شامل . قال عنه سايكس : "الحقيقة التى لاشك فيها أن ناصر الدين قاوم محاولات إرسال الشباب إلى مدارس أوروبا ، ولم يكن ناصر الدين ملكا عظيما تماما ، ففى أواخر عهده أصبح عصبيا أنانيا لا يهتم إلا بنفسه،ولكنه مع ذلك يعد أعظم حاكم أنجبته الأسرة القاجارية (١٠)

وإذا أردنا أن نلخص عصره نقول : إن عصر ناصر الدين شاه قد شهدت السنوات الأربع الأولى منه الاضطرابات المذهبية التى سببتها البابية ، وشهدت السنوات الست الأخيرة منه (١٨٩٠ - ١٨٩٦م) الاضطرابات السياسية التى تمخضت عن الثورة فى العهد التالى . وقد بذرت بذور الثورة ، بل ونمت فى أثناء رحلة الشاه الثالثة والأخيرة إلى أوروبا ، تلك الرحلة التى أثمرت امتيازات لم تكن فى صالح البلاد، (ولا سيما امتياز التبغ عام ١٨٩٠) عاملا فعالا فى إثارة السخط السياسى الذى وجد

---

(٩)عباس محمود العقاد : عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده ص١٥١

(١٠) Sykes : A history of Persia vol.2 p.37 .

متنفسه الأول فى الأحداث التى عرفت بأحداث التبغ عام ١٨٩١ ، و الذى بلغ أوجه فى ثورة عام ١٩٠٥ . " (١١)

وتعد فترة حكم ناصر الدين شاه فترة حافلة بالأحداث التاريخية ذات العبرة ، مما يجعلها هامة فى مجال الدراسة التاريخيه ومعرفة أسباب تدهور الأحوال فى إيران . ففى هذه الفترة كان هناك عاملان متصارعان دائما ، كل منهما يحاول جذب حكومة إيران وشعبها إلى ناحيته ، وهما : عامل الخير والإصلاح ، ويهدف إلى تعريف إيران بالحضارة الأوروبية الحديثة ، ودفع الظلم عن المظلومين وإقرار القانون والعدل فى الدولة ، وإصلاح الإدارات الفاسدة . والعامل الثانى هو عامل الفساد والشر ، وكان يقاوم العامل الأول ، ويعاديه عداء شديدا . ويعمل دائما على عرقلة تلك الجهود الإيجابيه .

وكان يمثل الجماعة الأولى عدد من رجال إيران يتمتعون بالخبرة والكفاءة وحب الخير للإيرانيين ، ولكنهم إما استشهدوا أثناء جهادهم هذا ، وإما أنهم منوا بالهزيمه والفشل الذريع فلم يستمروا فى محاولاتهم ، وودعوا الحياة متحسرين مهمومين . وكان من هؤلاء الرجال ميرزا تقى خان أمير كبير ، وميرزا يوسف خان مستشار الدولة وحاجى ميرزا حسين خان سبهسالار ، وقد استطاع أهل الشر أن يقضوا عليهم جميعا أو يحولوا بينهم وبين تنفيذ مايريدون .

وكان يعيش فى بلاط ناصر الدين شاه رجال من كلا الطرفين ، يجتهد بعضهم فى تعمير البلاد وتوعية الناس ، ويجتهد الآخرون فى تخريب البلاد والمحافظه على الجهل والفساد . وكان كلا الطرفين فى صراع مستمر . " (١٢) .

---

(١١) Browne : A literary History Of persiavol . iv p . 156

(١٢) رجال دورة ناصري : يحيي خان مشير الدولـة . (مجلة يادكارسال ٣ شمارة (١) شهريور ماه ١٣٢٥ ، ص ٣٢ ، ٣٤ . (لم يذكر اسم كاتب المقال) .

وفى عهد ناصر الدين شاه منيت إيران بأعظم خساره وهى استشهاد ميرزا تقى خان أمير نظام الأتابك الأعظم ، الذى كان يعد بإجماع السياسيين تاليا لمدحت باشا وبسمارك وجلادستون ، ولم يكن له ذنب سوى محاولة الحد من التصرفات الصبيانية للسلطان وحب الخير للمملكة والحكومة ، وكانت الإصلاحات العظيمة التى قام بها ذلك الوزير فى المدة القليلة التى تولى فيها الوزارة تبشر بمستقبل عظيم لإيران ، لو قدر لإصلاحات ذلك الوزير الكفء أن تستمر .

" وفى أثناء سنوات حكم ناصر الدين شاه عقدت ثلاث وثمانون معاهدة مابين معاهدات تجارية وسياسية وحدودية وامتيازات مع الدول الأجنبية ورعاياها ، وكانت إيران خاسرة مغبونة فى جميع هذه المعاهدات والامتيازات . " (١٣)

وقد أظهرت الحرب بين إيران وانجلترا فى عهد هذا السلطان عدم كفاءه السلطان وكبير وزرائه فى ذلك الوقت ، إذ " لو كان ناصر الدين شاه وكبير وزرائه غير الكفء على علم قليل بأصول الحكم والإداره لاستطاعا حتى بنظرتهما القصيرة أن ينظرا نظرة بعيدة إلى حد ما ، ويستفيدا من أوضاع ذلك العصر فوائد اقتصادية وسياسية ، ولاستطاعا أن يدفعا حكومة انجلترا إلى قبول شروط أفضل لصالح إيران . ولكن لما كان السلطان وكبير وزرائه جاهلين ، ولا يتمتعان بالكفاءه المطلوبة ، فإنهما بعد هزيمة بوشهر وفقد أفغانستان جلبا لإيران مزيدا من الضعف ولم يعد من الممكن إصلاح ماحدث ." (١٤)

ولعل أهم مايميز عصر ناصر الدين شاه هي رحلاته الثلاث إلى أوروبا ، كانت زيارته الأولى عام ١٢٩٠هـ بناء على الدعوة الرسمية التى وجهها إليه فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا لزيارة المعرض الدولى فى ڤينا . "أما الزيارة الثانية فكانت زيارة

---

(١٣) ناظم الإسلام كرماني : تاريخ بيداري ايرانيان ص ١٢٦ (باختصار) .

(١٤) حسين ثقفي اعزاز : جنك ايران وانكليس سنة ١٢٧٣ هـ . (مجلد يادكارسال ٣ شماره (١٠) ١٣٢٦ ، ص ٣٨ .

غير رسمية تمت عام ١٢٩٥ هـ . زار فيها باريس وموسكو وبطرسبورج وبرلين ، ثم عاد عن طريق النمسا وروسيا إلى إيران ، وكانت الزيارة الثالثة للشاه آخر زيارة قام بها إلى أوروبا ، تمت عامى ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ هـ . وكانت أيضا زيارة غير رسمية زار فيها دول أوروبا الوسطى والغربية .

" وقد أدت رحلات ناصر الدين شاه إلى أوروبا واطلاعه على أصول الحكم فى الدول الأوربية إلى دفعه إلى إتمام الإصلاحات التى كان قد بدأها قبل سفره ، فقد كان الشاه فى ذاته محبا للرقى راغبا فى التمدن ، فعزم على الإقدام على سلسلة من الإصلاحات فى الأجهزة الإدارية فى الدولة . ولكنه بعد أن اطلع على أصول الدول الأوروبية ، والتقى بأباطرة روسيا وألمانيا والنمسا ، الذين كانوا نموذج الاستبداد الكامل ، وكانوا من أقوى السلاطين فى عصرهم ، أخذ يفكر ويتساءل : كيف وبأى وسيلة يمكنه بسط نفوذه وسلطانه على جميع مناطق الدولة أكثر من ذى قبل ؟

" ولكن ناصر الدين شاه الذى تعرض للموت مرة فى مؤامره دبرها له بضعة أفراد من أتباع الباب والذى رأى فى رحلته الثانية إلى أوروبا فى برلين محاولة قتل جون جيوم الأول امبراطور ألمانيا ، فكر فى ترك باب صغير فى نظامه الاستبدادى المطلق ، فتظاهر بالحد من استبداده ، وإجراء بعض التغييرات فى الأجهزة السياسية والإدارية على النظام الأوروبى ، وأقدم على اقتباس بعض مظاهر المدنية الحديثة فى أوروبا مثل التلغراف والطرق الحديدية وهيئة الشرطة ،غيرها . " (١٥)

" وفى أوائل عام ١٢٨٨ هـ . قرر ناصر الدين شاه أن يؤسس مجلسا استشاريا حكوميا يضم كبار الأمراء و الوزراء ، ويعقد جلستين أسبوعيا ليتشاور معهم فى أمور المملكة . " (١٦)

---

(١٥) على اصغر شميم : ايران در دورة سلطنت قاجار ص ١٣٩ ، ١٤١ .

(١٦) محمود فرهاد معتمد : حاجي ميرزا حسينخان مشيرا لدولة وحسام السلطنة (مجلة يادكارسال ٢ شمارة (٧) ١٣٢٤) ص ٥٠ .

ولكن مما يؤخذ على ناصر الدين شاه أنه كان فى بعض الأحيان يريد أن ترتدى إيران ثوب الإصلاح دون أن توجد فيها حقيقته ." (١٧) ومن أمثلة ذلك أنه " أنشأ المكتبة الملكية تقليدا للمكتبات الملكية والعامة التى رآها فى الممالك الأجنبية ، ووضع فيها جميع الكتب الموجودة فى البلاط من عهد الملوك السابقين ، وضم إليها ماكان فى بلاطه هو أيضا من كتب ، ولكن هذه المكتبة لم تنشأ للاستفادة العامة ، وإنما كانت تعد من وسائل تجميل البلاط ، شأنها فى ذلك شأن متحف أو خزانة مجوهرات ، وكان ناصر الدين شاه يقنع بمجرد امتلاكها على هذا النحو ." (١٨)

ولعل من المناسب الآن أن نذكر بعض ماأورده ناظم الإسلام كرمانى فى وصف هذا السلطان ، فقد قال إنه " كان ينظم شعرا حسنا ، وكان متمسكا بأداء الصلاة ، وكان يحب حضور مجالس التعزية ، وكان يبتهج كثيرا بسماع مدائح الشعراء فيه ، وكان يعتبر نفسه دبلوماسيا ، ولم يكن له علم بالتاريخ . وكان يعرف العربية والفارسية والتركية والفرنسية . لم يظهر فى الأسرة القاجارية سلطان بهذا الكمال ، ألف أربعة كتب عن رحلاته ، وكان يقضى كثيرا من أوقاته فى التنزه والصيد ، وكان يجيد رمى السهام ، وله خط حسن . " (١٩)

وبصفة عامة نستطيع أن نقول إنه على الرغم مما حدث فى هذا العصر من تدخل أجنبى وامتيازات للأجانب ، إلا أن ناصر الدين شاه " قد بذل جهده - بقدر المستطاع - لخدمة بلاده ، ولكن الظروف كانت أقوى فعلا من أن تقاوم مقاومة فعالة . وبذل الشاه محاولة جدية لتحسين نظم القضاء والإدارة العامة ، ولكن مجهوداته لم تكلل بنجاح دائم ، ودخلت الدولة تحت سيطرة رجال الدين المتزايدة . " (٢٠)

---

(١٧) ناظم الإسلام كرماني : تاريخ بيداري إيرانيان ص ١٢٧ .

(١٨) كتابخانه سلطنتي (مجلة يادكارسال ٥ شمارة (١ . ٢) ١٣٢٧) ص ٣ . ٤ (لم يذكر اسم كاتب المقال .

(١٩) ناظم الإسلام كرماني : تاريخ بيداري ايرانيان ص ١٢٨ (باختصار) .

(٢٠) دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها . ترجمة الدكتور عبد النعيم حسنين ١٠١ ، ١٠٢ (باختصار) .

وهذا السلطان وإن وصف عهده بالظلم والاستبداد ، إلا أنه - كما جاء فى تاريخ بيدارى ايرانيان - أدى عدة خدمات لبلاده ، وتمت فى عهده إنجازات وإصلاحات منها : " إنشاء مدرسة دار الفنون فى طهران ، ونشر العلوم العالية الحديثة ، وإنشاء مستشفى وصيدلية ، وتذهيب الإيوان الذهبى المقدس فى مشهد ، وتذهيب قبة ضريح حضرة عبدالعظيم ، وإنشاء تلغراف ، و إنشاء دار صك العملة ، وانشاء إدارة البريد ، وإنشاء مصنع للمدافع ومصنع للبارود ومصنع للبنادق ، وإنشاء إدارة عامة للشرطة وإدارات للشرطة فى المدن ، وتنظيم الجيش ، وبناء قلاع على الحدود ، وبناء مجمع الصناعات ، والتقدم فى صناعة نسج الحرير ، والتقدم فى صناعة نسج الشيلان فى كرمان ، وبناء مبان عديدة فى البلاد العامة لتوفير سبل الراحة للمارة ، وشق الطرق فى أغلب البلاد وتمهيد الطرق الوعرة ، واكتشاف بعض المعادن ، وتأسيس مجلس نواب ، وتحديد وزارات منظمة ، وإنشاء مطبعة وتأسيس الصحف فى إيران . " (٢١)

هذه هى الصورة العامة لهذا السلطان وعصره ، وماحدث فى ذلك العصر من ظلم وماتمت فيه من إصلاحات ، وسنبين الآن لقاءه بجمال الدين الأفغانى .

علاقة جمال الدين الأفغانى بناصر الدين شاه :

فى الفترة التى كان فيها ناصر الدين شاه يقوم بزيارة أوروبا ، كان جمال الدين قد حقق شهرة سياسية كبيرة نتيجة ماكان يقوم به من نشاط فى باريس ولندن ، وأثناء إقامته فى باريس تلقى برقية من ناصر الدين شاه يدعوه فيها إلى بلاده ، وفى عام ١٣٠٤ وصل إلى طهران . " وكان السبب فى مجيئه إلى إيران هو أن ناصر الدين أثناء سفره إلى أوروبا سمع كثيرا عن السيد جمال الدين ، وعن اشتهاره وبعد صيته ونفوذكلمته ، فرأى أن دعوته إلى إيران تكون مدعاة لفخر الإيرانيين ومباهاتهم فى الأوساط الأوربيه . " (٢٢)

---

(٢١) ناظم الإسلام كرماني : تاريخ بيداري ايرانيبان ص ١٢٨ (باختصار) .

(٢٢) ميرزا لطف الله : جمال الدين الأسد آبادي (الترجمة العربية) ص ٧٧ .

"وقال ناصر الدين للسيد جمال الدين عند مقابلته : إنى مسرور بقبولك الدعوة وتجشمك متاعب السفر إلى إيران ، كما أنى أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوف مثلك فى بلاد إيران ، وإن علماء الغرب يعترفون بفضلك وعلمك ، ويؤسفنى أن تستفيد الشعوب الأجنبية من ثمرات أعمالك ، ويبقى بنو وطنك محرومين منها ، فقل لنا ماالذى يجب أن نعمله لتعمير إيران ورقيها ، وماأنجح الوسائل التى نرقى بها إيران ؟

فأجاب السيد : أستطيع أن أفخر بنفسى بأن أرى عاهل إيران قد استيقظ من سباته العميق ، وأخذ يفكر فى تعمير البلاد ورقيها ويثق بى . إن خراب وذل وشقاء الإيرانيين التعساء يعود إلى الذات السلطانية نفسها . وبين السيد للشاه كل العيوب بالدلائل الواضحة . وصفوة القول أنه عرض العيوب من جهة وطرق الإصلاح من جهة أخرى ، وقال إنه يجب ألا تكون الإصلاحات على هذا النحو الذى يسيرون عليه ، أى بتغيير الصورة والظاهر وإبقاء المفاسد الجوهرية على حالها .

فأثرت كلمات السيد فى ناصر الدين شاه أيما تأثير ، وتقبل الشاه مقترحات السيد كلها ، كما تعهد بالإصلاحات الإدارية . ثم قابل صنيع الدولة السيد جمال الدين مقدما له لقب اعتماد السلطنة ، وكلفه بقبول منصب رئاسة الوزراء ورئاسة دار الشورى ، ولكنه رفض ذلك وقال : إنى لم أطلب ولن أطلب الرئاسة فى الدنيا أبدا ، ولا أبغى غير تربية المسلمين ورقى الوطن ، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد إلى مااقترحته بنظرة صائبة دقيقة ، ثم يقرروا كل مايجدونه صالحا ويأمروا بتنفيذه . فوافق ناصر الدين شاه على ماقاله السيد ، وأمر أن يجتمع الوزراء والرؤساء والأعيان فى حضرة السيد ، ليخذو الترتيبات اللازمة لتنظيم أمور الدولة . " (٢٣)

---

(٢٣) المرجع السابق من ص ٨٠ ج- ٨٢ (بتلخيص) .

تعليق على هذه المقابلة :

نلاحظ الآن أن ناصر الدين شاه الذى وصف بأنه سلطان ظالم لم يكن معرضا عن العدل والإصلاح ، بل كان مستعدا لذلك لو أحسن الأفغانى أداء دوره كعالم ، واستفاد من فرصة ترحيبه بوجوده فى إيران ، وثابر على إقناعه بتنفيذ أكبر قدر ممكن من الإصلاحات ، ولاسيما وقد لاحظنا الآن مدى استعداد السلطان لذلك على الرغم من الأسلوب العنيف الذى خاطبه به الأفغانى ، إذ لم يغضبه ذلك ، وكان على الأفغانى ألا يكتفى بمجرد إسداء النصح مرة أو مرتين ، بل كان يجب أن يستفيد من مكانته لدى السلطان ، ويتابع تنفيذ مايمكن تنفيذه من إصلاحات ، ويحث الشاه ورجال بلاطه على ذلك بحكمة ودون إثارة لسخطهم .

ولكن هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها الشاه جمال الدين الأفغانى لم تستمر ، وكان السبب فى تغيرها سلوك الأفغانى نفسه ، إذ لم يسلك سلوك العالم الإسلامى نحو الحاكم والرعية .

" لقد التف حول السيد جمال الدين العلماء والعظماء ورجال الدولة وخاصة الأمة، وأخذ يجتهد ليلا ونهارا وسرا وجهارا فى إيقاظ الإيرانيين دون تملق ولا مداهنة ، وأسس جماعات سرية " . (٢٤)

" وظل يتحدث عن ضرورة تطبيق القانون ومعرفة الحقوق وحرية الفكر والقلم وضمان الأمان للأرواح والأموال ، وأخذ المغرضون ينقلون كلامه إلى الشاه مع المبالغة والدس والوقيعة ." (٢٥)

" وخلاصة الأمر أن شاه إيران غضب على السيد جمال الدين وتألم منه ، وعرف السيد فيه علامات الغضب والنفور ، فطلب منه أن يأذن له بالسفر إلى روسيا." (٢٦)

---

(٢٤) ناظم الإسلام كرماني : تاريخ بيداري ايرانيان ص ٨٠ .

(٢٥) يحيي آرين پور : أزصبا تانيما جـ١ص ٣٧٥ .

(٢٦) ناظم الإسلام كرماني : تاريخ بيداري ايرانيان ص ٨١ (باختصار) .

" وسافر جمال الدين إلى موسكو ثم إلى بطرسبورج . وعندما وصل ناصر الدين شاه إلى بطرسبورج أثناء رحلته الثانية إلى أوروبا ، أبدى رغبته فى لقاء جمال الدين ، ولكن هذا اللقاء لم يتم . وبعد ذلك ذهب جمال الدين إلى ألمانيا . وفى عام ١٣٠٦ وفى ميونخ عاصمة باڤاريا التقى بالشاه وأمين السلطان ، ودعاه الشاه إلى إيران حتى يعتذر إليه عما مضى .

" وفى عام ١٣٠٧ وبعد عودة الشاه من أوربا وصل جمال الدين إلى طهران ، ونزل مرة أخرى فى منزل حاجى محمد حسن أمين صك العملة ،وبعد شهر قابل الشاه . وفى طهران كان يتجه إلى السيد كل يائس ومظلوم ، وأخذ يتحدث بصراحة ودون مجاملة عن فساد الأوضاع وسوء تدبير الوزير وغفلة الشاه . " (٢٧)

"وكان إقبال الناس على السيد جمال الدين فى هذه المرة أشد ، وذلك لعظيم رغبتهم فى أن يصلح من شأن بلادهم . وكان الحماس على أشده فيما يتصل بالإصلاح الدستورى ." (٢٨)

" وأخذ السيد جمال الدين يعقد مجالس سرية ، فأوغر أمين السلطان صدر ناصر الدين شاه عليه ، وأخذ يخوفه من انهيار الحكم ، فاضطر الشاه أن يكتب إلى حاجى محمد حسن أمين صك العملة بأن يعتذر إلى السيد بأدب ولين ، وأخبر أمين الدولة السيد قبل وصول أمر الشاه إلى أمين العملة ، ولهذا وقبل أن يرى السيد جمال الدين أمر الشاه انتقل إلى زاوية حضرة عبدالعظيم (وهو ضريح بالقرب من طهران ، ويعد ملجأ لا تنتهك له حرمة) . وظل السيد جمال الدين فى هذه الزاوية المقدسة مشغولا بدعوة الناس سبعة أشهر وعدة أيام ، وأخذ يحدث الناس عن مفاسد الحكم الاستبدادى ، ويعرفهم بحقوقهم ، وكان يقول دائما : أنا أكره الظالم والمظلوم ، أكره الظالم لظلمه ، وأكره المظلوم لأنه يقبل الظلم ، ويصبح بهذا سبب جرأة الظالم .

---

(٢٧) آرين پور : ازصبا تانيما ط ٣٧٥، ٣٧٦ .

(٢٨) محمود قاسم : جمال الدين الأفغاني حياته وفلسفته ص ٧١ .

" وأخذ أمين السلطان يحدث ناصر الدين شاه بما يزيد مخاوفه من السيد جمال الدين ، وكان يقول له : إنه سيحول إيران إلى جمهورية عما قريب . وأخذ أصدقاء السيد جمال الدين أيضا يذكرون مطالبه علنا فى مجالسهم .

" وكان هدف السيد فى الظاهر توحيد البلاد الإسلامية وجمع كلمة المسلمين ، ولكنه كان فى الحقيقة يسعى إلى تحويل إيران إلى جمهورية دستورية . وكان يذكر علنا فى مجالسه مفاسد الاستبداد وعيوب الحكم الاستبدادى ، وفى الاجتماعات السرية كان يحرض أصحابه على إيقاظ الناس وتوعيتهم بحقوقهم ." (٢٩)

"وذاعت شهرته فى أقاصى بلاد الفرس ، وشاع عزمه على إصلاح إيران ، فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك ، فأرسل إلى زاوية شاه عبدالعظيم خمسمائة فارس ، قبضوا على جمال الدين ، وكان مريضا فحملوه من فراشه ، وساقوه يخفره خمسون فارسا إلى حدود المملكة العثمانية ." (٣٠)

ويذكر على عبدالحليم محمود " أنهم قبضوا على جمال الدين وكان مريضا ، فحملوه من فراشه على برذون وساقوه بصورة فظيعة وعليه دور من الحمى درجة حرارتها أربعون ، ولم يسمحوا له باستراحة دقائق ، حتى أوصلوه إلى حدود المملكة العثمانية فى ولاية البصرة ."(٣١)

" وكان ذلك أشد ماتعرض له السيد جمال الدين من محن ، وقد ظل يعانى ألم المرض الذى اشتد عليه من هذا الحادث وكاد يودى به لولا لطف الله . لقد آلى أن ينتقم من الشاه شر انتقام ، وألا تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه ،وقد بر فيما أقسم، فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسموعى الكلمة يهيجهم على الشاه." (٣٢)

---

(٢٩) تاريخ بيداري ايرانيان ص ٨١ ، ٨٣ .

(٣٠) محمد عبده : مقدمة رسالة الرد علي الدهرين ص ١٢ .

(٣١) علي عبد الحليم محمود : جمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه ص ٢٧٦ .

(٣٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٩٧ . ٩٨ (باختصار) .

رأى الإسلام فى موقف العالم من الحاكم والرعية :

ونبين الآن رأى الإسلام فى هذه الأمور ، لكى نعرف موقف العالم أو الزعيم الإسلامى من الحكام وموقفه من الرعية ، وماالواجب عليه فى حالة عدل الحاكم وفى حالة ظلمه . ونستطيع بعد ذلك أن نرى بوضوح إلى أى مدى اتفق الأفغانى مع مبادىء الإسلام أو اختلف عنها.

ونذكر أولا خلاصة ماجاء فى تفسير ابن كثير تفسيرا لهذا الأمر الإلهى : " يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ."(من الآية ٥٩ النساء) : " قال ابن جرير حدثنى على بن مسلم الطوسى. . . عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " سيليكم ولاة بعدى فيليكم البر ببره والفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم وأطيعوا فى كل ماوافق الحق ، وصلوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم " وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وإنه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون " قالوا : يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال : " أوفوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم " أخرجاه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعه شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية " أخرجاه . وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " رواه مسلم . وروى مسلم أيضا عن عبدالرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبدالله بن عمرو بن العاصى جالس فى ظل الكعبة ، والناس حوله مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فنزلنا منزلا ، فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتقل ، ومنا من هو فى جشره ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه لم يكن نبى من قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على

خير مايعلمه لهم ، وينذرهم شر مايعلمه لهم ، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها فى أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور ينكرونها ، وتجىء فتن يرقق بعضها بعضا وتجىء الفتنه فيقول المؤمن هذه مهلكتى ، ثم تنكشف وتجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأت منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر . " قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، ويقتل بعضنا بعضا والله تعالى يقول (ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) قال : فسكت ساعة ثم قال : أطعه فى طاعة الله ، واعصه فى معصية الله . والأحاديث فى هذا كثيرة.

" وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وأولى الأمر منكم) يعنى أهل الفقه والدين ، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصرى وأبو العالية (وأولى الأمر منكم) يعنى العلماء . والظاهر والله أعلم أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم . وفى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصا الله ، ومن أطاع أمرى فقد أطاعنى ومن عصا أمرى فقد عصانى " فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ، ولهذا قال تعالى(أطيعوا الله) :أى اتبعوا كتابه (وأطيعوا الرسول) أى خذوا بسنته (وأولى الأمر منكم) أى فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى معصية الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله كما تقدم فى الحديث الصحيح "إنما الطاعة فى المعروف " وقال الإمام أحمد حدثنا عبدالرحمن... عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا طاعة فى معصية الله ." (٣٣)

---

(٣٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ط ٥١٧ - ٥١٨ .

وهكذا يتضح الإطار الصحيح للتعامل مع الحكام ، وفيم تجب طاعتهم وفيم لا تجب ، وتتضح أيضا العاقبة الوخيمه للخروج على الحكام ومفارقة الجماعة ، ونرى حرص الإسلام على انضواء المسلمين تحت حكم أميرهم ، فقد جعل الإسلام عدم الخروج على السلطان ، أى عدم إثارة الفتن واجبا دينيا وشرطا من شروط الإسلام .

وقد وردت أحاديث أخرى فى رياض الصالحين توضح هذا الأمر أكثر ، وتبين طريقة التعامل مع الحكام الظالمين منها : " عن أبى هنيده وائل بن حجر رضى الله عنه قال : سأل سلمه بن يزيد الجعفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل : يا نبى الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم " رواه مسلم .

" وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها.قالوا : يارسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم . " متفق عليه.

"وعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ،وتلعنونهم ويلعنونكم ، قال : قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم ؟ قال : لا ... ماأقاموا فيكم الصلاة ، لا... ماأقاموا فيكم الصلاة. " رواه مسلم . وتصلون عليهم أى تدعون لهم . " (٣٤)

وهكذا يتضح أن الولاة ماداموا يقيمون الصلاة فى المسلمين ولا يحاربون الدين ، بل يستطيع المسلمون فى عهدهم أداء العبادات وممارسة حياتهم الإسلامية . فلا ينبغى الخروج عليهم ، بل يجب تحمل أخطائهم والصبر على ظلمهم ، لأن هناك ظلما أشد وهو محاربة الدين .والحكمة من هذا التوجيه الإسلامى أن عواقب الصبر والتحمل فى هذا

---

(٣٤) رياض الصالحين ص ٢٣٩ . ٢٣٧ .

المجال أهون وأخف ضررا من العواقب الوخيمة للخروج عليهم ، ومايتسبب عن ذلك من فوضى واضطراب ، حيث ينتشر الخوف ، ويضيع الأمن ، وتتعرض الأرواح والأموال للهلاك . وكل ذلك يمكن تجنبه بالصبر والتحمل ، فمن الطبيعى أن تكون هناك بعض الأخطاء ، والمهم ألا تكون هذه الأخطاء فى عماد الدين أى الصلاة . ومن القواعد المعروفه فى الإسلام أن كل نفس بما كسبت رهينة ، فيثاب أفراد الرعية على صبرهم وتحملهم ، ويكافئون على ذلك ، ويحاسب الوالى على أخطائه .

ولكى يتضح رأى الإسلام فى هذه المسألة أكثر نذكر رأى اثنين من كبار علماء الاسلام وهما الإمام أحمد بن حنبل والإمام ابن تيمية . ونبدأ بتوضيح رأى الإمام أحمد بن حنبل .

يقول محمد أبوزهرة فى كتابه " ابن حنبل " تحت عنوان " آراؤه فى السياسة " : " لقد كان مسلك أحمد فى دراسته لبعض النواحى المتصلة بالسياسة رجلا يتبع الأثر ، ولا يتجانف عن مسلكه ... وفى شأن الخلافة والخليفة وممن يختار وكيف يختار كان رجلا واقعيا يتجنب الفتن . (٣٥) ويجتهد فى أن يكون شمل المسلمين ملتئما ، ويؤثر الطاعة لإمام متغلب - ولو كان ظالما - على الخروج على الجماعة.

ويتشابه نظر أحمد فى مسائل السياسة ونظر الإمام مالك رضى الله عنه، فهما يتفقان فى ترتيب منازل الصحابة ، ويتفقان فى اختيار الخليفة ، ويتفقان فى أن الخروج على الخليفة ولو كان ظالما لا يجوز ، لأنه يرتكب فى فتن الخروج من الظلم مالا يرتكبه الحاكم المستبد من ظلم .

"... وكان أحمد فريسة لنوع من الحكم الظالم ، ونزل به من الضرب والحبس والتضييق مايثير كل حليم ، ويزرع حب النقمة فى القلوب ويولد الحقد والإحن ، وكان هذا من شأنه أن يجعله مؤيدا للخروج على الحكام لو كان رأيه يستمد من إحساسه ،

---

(٣٥) لم يكن في تجنبه الفتن واقعيا فقط ، بل كان أيضا متبعا لسنة النبي صلي الله عليه وسلم في أحاديثه التي نهي فيها عن الخروج علي السلطان إلا بشروط محددة وقد سبق ذكرها .

ولكنه ماجعل حكمه تبعا لهواه ، بل استمد رأيه فى الخلافة والخروج عليها من السنة وعمل السلف والمصلحة الاجتماعية العامة ، فقد كان ينهى عن الخروج ويعتبره بغيا. "(٣٦)

" وإذا كان أحمد يقر ذلك الطريق الذى سلكه أبوبكر رضى الله عنه ، بل نرجح أنه يختاره عند سلامة الخليفة الذى يعهد إلى غيره من الهوى ، فإنا نراه يقر أخذ الخلافة بالتغلب إن أطاعه الناس ورضوا به ، وهو فى هذا يسلك مسلك شيخه الشافعى فى اعتباره إمامة المتغلب ، ويسلك مسلك مالك فى اعتباره إمامه المفضول .

" ولننقل العبارات الدالة على مانقول من كلامه ، فقد قال فى إحدى رسائله رضى الله عنه :

" السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ، ومن ولى الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر ، وقسمة الفىء وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض ، وليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم ، ودفع الصدقات اليهم جائز نافذ ، من دفعها إليهم أجزأت عنه ، برا كان أو فاجرا ، وصلاة الجمعة خلفه وخلف كل من ولى جائزة إمامته ، ومن أعادها فهو مبتدع تارك الآثار، مخالف للسنة، ليس له من فضل الجمعة شىء ، فالسنة أن تصلى معهم ركعتين ، وتدين بأنها تامة ولا يكن فى صدرك شك ، ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين ، وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له الخلافة بأى وجه كان بالرضا أو بالغلبة ، فقد شن هذا الخارج عصا المسلمين ، وخالف الأثار عن رسول الله ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية . " (المناقب لابن الجوزى ص ١٧٦) .

هذه أقوال أحمد ناطقة نطقا صريحا بأنه يرى أن الإمامة كما تكون بالرضا السابق على التولية ومجىء الولاية تابعة له ، قد تكون بالغلب بأن يتغلب شخص بسيفه على

---

(٣٦) محمد أبو زهرة : ابن حنبل حياته وعصره - آراؤه وفقهه ص ١٥٤ .

المسلمين ، ويتولى أمورهم فيطيعوه ، فتكون العافية للجماعة الإسلامية فى عدم الخروج عليه ، وإصلاحه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهو صريح فى وجوب طاعة البر والفاجر ، ووجوب الإخلاص له فى السر والعلانية ، وصريح فى أن الخروج عليه بغى وشق لوحدة الجماعة وخروج على السنة وميل إلى البدعة .

وظهر أن أحمد ماكان يرى الطاعة فى أمر قد محض للمعصية ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ويؤخذ ذلك من أفعاله لا من أقواله ، فالمعتصم والواثق ، ومن قبلهما رسل المأمون حاولوا حمله على أن يقول فى القرآن غير مايعتقد ، فما أجابهم إلى ماطلبوا ، ورضى بالعذاب الهون ولم يجبهم إلى مايقولون ، ولم يكن فى ذلك النوع من المخالفة للسلطان خروج ، ولا دعوة إلى الخروج لأن يجاهر بعصيانه ويقاتله ، والدعوة إلى الخروج تحريض الناس على العصيان والقتال ، وبث روح التمرد فى النفوس . ولم يكن فى امتناع أحمد عن أن يقول مقالة الخليفة فى أمر القرآن شىء من ذلك، إنما هو الاستمساك بالعروة الوثقى فى نظره، والصبر على المحنة فى سبيلها .

فالذى ينهى أحمد عنه هو الخروج بالسيف ، أو مايؤدى إلى ذلك ، وليست الطاعة تتقاضى الطائع أن يقول كل مايرضى الخليفة بالحق وبالباطل ، فإن ذلك هو الرياء والنفاق .

لقد كان مالك رضى الله عنه يرى ما رآه أحمد من بعده ، ولكنه كان يرى أن النصح لأئمة المسلمين هو الطريق الأمثل لحملهم على العدل وإقامة السنة ، ولذلك اختلط بهم ونصح لهم ، وقام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير مداجاة ولا إدهان فى القول .

ولكن يبدو أن أحمد بن حنبل كان يرى رأى الحسن البصرى من أن صلاح الرعية يؤدى لا محالة إلى صلاح الراعى ، وأن الحاكم مظهر من مظاهر الشعب ، فإذا استقام الشعب على الجادة وأقام السنة ، واستمسك بأوامر الدين ظهر الحكام الصالحون . ولذلك كانت جهوده كلها لإحياء السنة وحث الناس على القيام بحقها ، وكانت أقواله

وأفعاله داعية قوية مؤثرة للصلاح والاستقامة . " (٣٧)

والآن نرى ماذا يقول ابن تيمية فى هذا المجال ، فماجاء عن رأيه فى الإمامة العظمى : " وأما شرط العدالة فقد اتفق المسلمون على اشتراطه عند الاختيار ، ولكن اختلفوا فى طاعته إذا ظهر فاسقا أو تآمر عليهم فاسق وكان غير خليفة ، اختلفوا فى ذلك على ثلاثة أقوال : أولها : أن يرد جميع أمره ، ولا يطاع فى طاعة ولا معصية ، لأن ولايته ظلم وطاعته ولو فى عدل إقرار لهذا الظلم . وثانيها : وهو أقواها وأعلاها، وعليه الأكثرون أن يطاع فى الحق وألا يطاع فى معصية أخذا من الحديث (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) . ثالثهما: أنه لو كان الفاسق هو الإمام الأعظم يطاع في الطاعة ولا يطاع فى المعصية ، وإن كان الفاسق ليس هو الإمام الأعظم ، بل أحد ولاة الأقاليم أو من دون ذلك ، فإنه ترد طاعته فى عدل وظلم ولا يقر ، لأن الإمام الأعظم لا يمكن تغييره إلا بفتنة ، ومن دونه يمكن تغييره بدون فتنة .

ويختار ابن تيمية الرأى الوسط ، وهو الطاعة فى العدل والعصيان فى الظلم . وقد اتفق المسلمون على أنه لا طاعة فى معصية قط ، وإنما خلافهم فى طاعته فى الحق والعدل .

وهنا يثار بحث فى أمرين (أولهما) إذا لم يتيسر تحقق شروط الولاية للإمام الأعظم ، بأن لم تتوافر القرشية ، أو لم تتوافر الشورى ، أو لم تتوافر العدالة ، فهل يكون الناس من غير خليفة ؟ (ثانيهما) أيصح الاشتراك فى الفتن للتغيير أم لا يصح الاشتراك قط ، ويكون السعى فى التغيير من غير انتقاض ؟

يثير ابن تيمية هذين الأمرين ويتولى الإجابة عنهما ملتزما منهاج السنة وطريق السلف ، معتبرا بالعبر . أما إجابته عن الأول فهو أنه كأهل السنة يقسم الحكام إلى قسمين : حكام هم خلفاء نبوة ، وحكام هم ملوك لهم الغلب بالسيف أو غيره على أكثر المسلمين .

---

(٣٧) المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٢ .

والأولون هم الذين استوفوا شروط الخلافة من قرشية واختيار بالمشورة الصحيحة والمبايعة وقيام بالعدل والحق ، أما إذا فقدوا شرطا من هذه الشروط ، فإن حكمهم لا يكون خلافة نبوة بل يكون ملكا . ويؤديه الاستقراء التاريخى إلى أن الخلافة الإسلامية النبوية المهدية لم تكن إلا ثلاثين سنة بعد النبى، صلى الله عليه وسلم ، وبعدها صارت ملكا عضوضا يعض عليه بالنواجذ . ويحكم بأن بنى أمية وبنى العباس كانوا ملوكا بأسماء الخلفاء ....

وهو يرى الطاعة لهؤلاء الملوك المستخلفين ، وإن لم يكونوا خلفاء نبوة لعدم استيفائهم شروط الخلافة النبوية الصحيحة ، تجب طاعتهم والخضوع لحكمهم . وهم ولاة الأمر ، وذلك لأنه يرى كرأى أحمد والشافعى ومالك أن كل متغلب تجب طاعته حتى يغير من غير فتنة ، ولأنه يرى أن أولئك مهما يكن من أمرهم يعدون ملوك المسلمين ما داموا هم الحاكمين ، ولا ينازعهم عدل أمين قد استوفى شروط الخلافه النبويه ، ولأنهم يقيمون الحدود وينظمون الولايات ، ويغزون أعداء المسلمين ويدافعون عن البلاد، وكونهم فجارا لا يمنع تقديم الطاعه لهم حتى يغيروا ، ما دامت الطاعه لا معصيه فيها .(٣٨)

ونرى من هذا أن نظرة ابن تيمية عملية (٣٩) ويهمه تحقق إقامة الدولة الإسلامية ، وتنفيذ الأحكام الدينية وسد الثغور ، وحماية الدولة من أعدائها وتثبيت النظام وتقوية دعائمه ، فإن أمكن أن يقوم بذلك العدل كان ذلك هو الدين فى صحيحه ولبه ، وإن لم يمكن إقامة العدل القوى الذى يحمى الذمار ويحسن التدبير ، ووجد الأمير القوى الحسن الرأى والتدبير وإن لم يكن عدلا فى كل أحواله فرضت طاعته . وهو فى ذلك ينهج منهج الإمام أحمد ، فقد سئل عن أميرين أحدهما قوى فاسق ، والآخر تقى ضعيف، مع أيهما يعمل المجاهد؟ فقال رضى الله عنه : مع القوى لأن فسقه على نفسه وقوته للمسلمين ، ولا يعمل مع الضعيف لأن تقواه لنفسه وضعفه للمسلمين .

---

(٣٨) بعد ذلك يستشهد المؤلف بفقرة من كلام ابن تيميه في منهاج السنة جـ ٢ ص ٢٤٠ .

(٣٩) ليست عملية فقط وإنما موافقة للكتاب والسنة كذلك .

وعلى هذا النظر يرى ابن تيمية طاعة ولى الأمر فى غير معصية . (٤٠) ويرى أن هذه الطاعة واجبة مادامت فى غير معصية ، ولا طاعه فى معصية مطلقا ، ولكن .. هل تجوز الثورة على الظالم أو من يكره الناس على الطاعة فى المعاصى ؟

يقرر ابن تيمية أنه لا يطيع المؤمن مطلقا فى معصية ، ولذلك لم يطع عندما أمروه بالامتناع وعربده الضالين . ومن أجل هذا اهتم الفكر الاسلامى الذى أباح العزل بألا يكون ذلك إلا لضرورة قصوى ، روى أن عبادة بن الصامت قال : " بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم ."

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لا تنازعوا الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا ." (٤٢)

وجاء فى هذا الشأن أيضا فى كتاب الحاكم وأصول الحكم فى النظام الإسلامى :

" ومن معجزات النبوة أن أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام أمته بما سيحدث لها من هذه الفتن فقال : " إن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضا (يرقق بعضها بعضا يعنى أن الفتنة التى تأتى تكون أشد مما قبلها وأخف مما بعدها .. جزء من حديث رواه مسلم) . (٤٣)

هكذا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأمة المحمدية تتدرج من السلامة إلى الخطر تبعا لمرور السنين والقرون عليها ، وأن أول عصور الإسلام أسلمها من الفتن ، ومابعده أدخل فيها ، وكلما بعدت عن زمن النبوة كلما اشتدت الفتن وعظم البلاء وكثر الانحراف .

---

(٤٠) يذكر شواهد من الأحاديث النبوية سبق ذكرها في هذا البحث .

(٤١) محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ٣٤٤ - ٣٤٩ .

(٤٢) أحمد شلبي : السياسة في الفكر الإسلامي ص ١٣٥ .

(٤٣) ذكر المؤلف بعد ذلك الحديثين الذين سبق نقلهما من رياض الصالحين عن عبدالله بن مسعود وعن أبي هنيدة .

ولأن الأمر كذلك فقد وجه الرسول عليه الصلاة والسلام أمته وحثهم على السمع والطاعة ، وإن كان المتولى عليهم فى أمور الدنيا ظالما عسوفا ، فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه ولا يخلع ، بل يتضرع المسلم إلى الله فى كشف ضره وأذاه ، اللهم إلا إذا أتى كفرا بواحا من الله فيه برهان ، فيمكن الخروج عليه إذا لم يترتب على ذلك إثارة فتن أو نشوب نزاع .

والثابت من أقوال الفقهاء أنه لا خلاف حول حق الأمة فى عزل الحاكم متى ثبت الجرح فى عدالته ، ويعبرون عنه بالفسق ، لأنه بخروجه عن الدين فقد شرط صلاحيته، ولكن مراعاة لأمن الأمة وسلامتها من الفتن التى قد تحيله إلى مجتمع جاهلى يضرب بعضهم فيه رقاب بعض ، فقد احتاط الإسلام لذلك ، فلم يجز الخروج علي الحاكم إلا لاعتبارات جسيمة وعند الضرورة القصوى ، تمسكا بالقاعدة الشرعية التى تتطلب تحمل الضرر الأدنى لتفادى الضرر الأكبر . " (٤٤)

إن أسوأ مايمكن أن يبتلى به المجتمع الإسلامى ليس وجود حاكم يظلم المسلمين فى أمور معاشهم ، وإنما هو من يشوش عليهم أمور دينهم ، ويسلبهم الأمن وهو أساس صلاح أمورهم الدينية والدنيوية معا ، إن نقص الدخل الناشىء عن ظلم يقع من الحكام يمكن تحمله بالصبر ، أما مالايمكن تحمله على الإطلاق فهو إثارة الفتن وانتشار الاضطراب والفوضى ، بحيث لا يأمن أحد على روحه ولا ماله ولا عرضه ، فكيف إذن يستطيع أداء العبادات وطاعة الله ؟

لهذا يبوء مثيرو الفتن والاضطرابات بالخسران المبين ، ويعاقبون عن كل من سببوا له أذى ، وشوشوا عليه عبادته . ومن أجل هذا حرص الإسلام على تجنيب المسلمين هذا الخطر الأشد والأفظع ، أما الأضرار الأقل فيمكن تحملها درءا لهذا الخطر الأشد .

يتضح الآن أن جمال الدين الأفغانى لم يكن يعرف شيئا مما ذكرناه الآن ، ولا سيما تلك الأحاديث الواضحه التى تبين واجب العالم الإسلامى وواجب الرعية ، ويتضح أيضا أنه لم يكن فى سلوكه عن الفتوى فى الطلاق أو زيارة القبور أو غيرها مما رأى أن

---

(٤٤) صبحي عبده سعيد : الحاكم وأصول الحكم في النظام الإسلامي ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

الامتناع فيه معصية ، ولكنه لم يسوغ الثورة والانتقاض ، بل أمر بالاحتمال مع الصبر، لأنه يرى الثورة والفتن انتقاضا وفوضى وهدما ، والفوضى يقع فيها مظالم كثيرة ، والحكم على صورة من صوره خير من الفوضى على أحسن صورة من صورها ، ولا عدل مع الفوضى . ولأن بالاستقراء التاريخى لم نجد فتنة أقامت عدلا وخفضت ظلما ، بل إنها قد تفتح الباب لدعاة البغى والعدوان والفساد ، وأن التغيير يكون بالإرشاد والموعظه الحسنة ، الكلمة الحق تقال للحكام الظالمين ، مهما يكن مايترتب عليها من قتل أو سجن ، ويرى ابن تيمية كما قال النبى صلى الله عليه وسلم (أفضل الجهاد كلمة حق لسلطان جائر) ، فهو يوجب على العلماء أن يجبهوا الحكام الظالمين بكلمات الحق والعدل والإرشاد ، ويرى أن ذلك أخص أعمالهم وألزمها ، ولكن لا يسوغ الفتنة أو الدعوة إليها ، لأن التاريخ أثبت أنها لا تقيم حقا قط ، ويقول فى ذلك رضى الله عنه : « المشهور من مذهب السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الفساد فى القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة ، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ، ولعله لا نكاد نعرف طائفة خرجت على ذى سلطان إلا وكان فى خروجها من الفساد ماهو أعظم من الفساد الذى أزالته ، والله تعالى لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغ كيفما كان ، ولا أمر بقتال الباغين ابتداء ، بل قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا) فلم يأمر بقتل الفئة الباغية ابتداء . وفى صحيح مسلم عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (سيكون أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن عرف برء ، ومن أنكر سلم ، ولكن من رضى وتابع ، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ماصلوا) ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتالهم مع إخباره أنهم يأتون أمورا منكرة . وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم سترون بعدى أثرة

تنكرونها . قالوا : فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله ، فليكره مايأتى من معصية ولا ينزعن يدا عن طاعة » (منهاج السنة جـ٢ ص٨٧) .

هذا نظر ابن تيمية فى الحكم والحكام ، يرى أن الحكم الملكى تجب طاعته مادام قد جمع شمل المسلمين كالحكم بالخلافة النبوية الذى لم يستمر فى التاريخ إلا ثلاثين سنة ، ثم صار بعدها ملكا كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم . وأنهم ماداموا قائمين بالصلاة وشعائر الإسلام وحماية الدولة الإسلامية تجب طاعتهم فى غير المعاصى ، أما المعاصى فتستنكر عليهم ، ولكن لا يسوغ الخروج عليهم وقتالهم ." (٤٥)

وفى هذا المجال أيضا يقول أحمد شلبى : " إن إجلال هذا المنصب ليس من أجل شاغله ، بل من أجل التوقير اللازم لمنصب إذا عز عز المسلمون ، وإذا ذل ذل المسلمون وكانوا عرضة لهجوم الأعداء مع الحكام والرعية متبعا منهج الإسلام ، إذ كان أهم مايجب عليه أولا : أن يستمر فى نصح ناصر الدين شاه ويثابر على ذلك ولا ييأس ، حتى يحصل منه على أكبر قدر ممكن من العدل والإصلاح لشئون الرعية . وثانيا : كان عليه طبقا لمنهج الإسلام أن يبين لأفراد الرعية معنى تلك الأحاديث النبوية الشريفة ويوضح لهم الحكمة العظيمة من الصبر والتحمل فى حالة وقوع بعض الظلم . وماكان يجب أن يتحدث إليهم عن فساد الأوضاع وسوء تدبير الوزير وغفلة السلطان ، وكان يجب ألا يحدثهم عن مفاسد الحكم الاستبدادى ، فذلك كله من شأنه أن يثير سخط الرعية ، وينزع الصبر من قلوبهم ، ثم لا يصلح شيئا ، فلا هو تركهم يتحملون ماهم فيه ، ولا هو قدم إليهم شيئا من الإصلاح .

إن حديثه عن ضرورة تطبيق القانون ومعرفة الحقوق وحرية الفكر والقلم وضمان الأمان للأرواح كان يجب أن يتوجه به إلى السلطان لا إلى أفراد الرعية كما كان يفعل.

---

(٤٥) لطف الله خان : جمال الدين الأسد آبادي (الترجمة العربية) هامش ص ٢٤ ، ٢٥ .

فالمنهج الإسلامى هنا يوجب على العالم إذا رأى حاكما يظلم الرعية أن يتجه إلى الحاكم بالنصح والإرشاد والتوجيه السليم حتى يرفع ظلمه عن الرعية أو يخففه ، ثم يتجه أيضا إلى أفراد الرعية ينصحهم بالصبر والتحمل وتوجيه هممهم إلى العمل وتعلم ما ينفعهم وترقب حسن الجزاء من الله على أداء واجبهم .

نستطيع أن نتبين الآن بعد أن عرفنا رأى الاسلام فى واجب الزعيم الاسلامى فى هذا الشأن أن الأفغانى كان يفعل عكس مايوجبه الإسلام عليه ، أولا : لأنه لم يجتهد فى حث ناصر الدين شاه على العدل والإصلاح ، ولم يثابر على نصحه . ثانيا اتجه إلى أفراد الرعية يثير سخطهم على سلطانهم ولم يحاول تعليمهم ما ينفعهم فى حاضرهم ومستقبلهم وحثهم على أداء واجبهم .

لقد أدت غفلة الأفغانى عن التوجيهات الحكيمة فى الإسلام فى العلاقة بين الحاكم والرعية إلى أن قدم بنفسه لناصر الدين شاه مبررات الغضب عليه ، وذلك بإثماره سخط الناس عليه . وما دعا الإسلام إلى ذلك قط ولا أجازه .

وهكذا يكون الأفغانى هو الذى أغضب ناصر الدين شاه عليه ، ولكن رجال السلطان هم الذين ضاعفوا مخاوف السلطان منه ، ثم بالغوا فى إخراجه على تلك الصورة المؤلمة .

وقد ذكرنا من قبل أن الأفغانى أصر على الانتقام من الشاه شر انتقام وألا تهدأ نفسه حتى ينزل عن عرشه ، فأخذ يكتب إلى علماء الدين يهيجهم على الشاه .

انتقام الأفغانى من الشاه :

ذهب السيد جمال الدين الأفغانى لمقابلة ميرزا حسن الشيرازى فى سامراء، وكتب له بعد ذلك خطابا ذكر فيه الأدلة والبراهين القاطعة التى تثبت عدم أهلية ناصر الدين لحكم بلادالمسلمين ، والأضرار التى تلحق بإيران والعالم الإسلامى من جراء امتياز احتكار التبغ الذى منحه الشاه لإحدى الشركات الإنجليزية ، وترتب على هذا أن ميرزا

حسن الشيرازى العالم الأكبر والمرجع الأول للشيعة إذ ذاك أفتى بتحريم المعاملة فى أمر التبغ الإيرانى مع الشركة الإنجليزية التى حصلت على الإمتياز " [1] واضطر الشاه الى فسخ العقد ودفع نصف مليون ليرة تعويضا للشركة ، فكانت هذه أول خطوات الانتقام " (٤٦) .

"ثم ذهب السيد جمال الدين إلى لندن للمرة الثالثة - وأخذ يتحدث فى محافل لندن عن فساد الأوضاع فى إيران وسوء إدارة ناصر الدين شاه ، وما ابتليت به إيران من نكبات فى عهده ، وأخذ يشجع الإنجليز على عزله عن العرش . وظل يكتب بعض المقالات فى هذا الشأن فى صحف انجلترا ، حتى قام هو بتأسيس مجلة شهرية باللغتين العربية والإنجليزية بإسم ضياء الخافقين " (٤٧) .

وأخذ السيد جمال الدين يكتب فى هذه المجلة مقالات بإمضاء السيد الحسينى ، يفضح فيها حكومة الشاه وسوء الإدارة وانتشار الرشوة وتعذيب الأهالى ، ويحرض فيها العلماء على أن يصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه فإذا هو طريد . وكان السيد يختار من الألفاظ الجمل فى مدح العلماء أضخمها وأقواها ، وفى ذم الحكومة والشاه أهجاها وأقساها . (٤٨)

ويرى أحمد أمين " أن هذه ذلة كبيرة من السيد جمال الدين دعاه إليها حدته وحبه للانتقام ، إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى "العروة الوثقى " ؟ وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟ لقد

---

(٤٦) أحمد امين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٩٨ .

(٤٧) يحيى آرين پور : ازصبا تانيما ط ١ ص ٣٧٧ .

(٤٨) أحمد أمين : زعماء الإصلاح ... ص ٩٨ .

كان مدحت باشا زعيم الإصلاح الإجتماعى التركى فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه السلطان عبد الحميد وأخذ رجاله من مقر الوزارة إلى السفينة لا مال ولا ثياب ولا أهل ، ومع هذا ما أن وضع قدمه فى أوربا حتى أخذ يسعى فى دفع الشر عن أمته ويتحدث كثيرا عن فضل الأتراك على أوربا ، ولا ينطق بكلمة فى ذمة عبد الحميد الذى عامله معاملة الشاه لجمال الدين . فى الحقيقة أنها غلطة من غلطات السيد دعته إليها حدة مزاجه ." (٤٩)

وهكذا أخذت العلاقة بين الأفغانى وبين الشاه صورة العداء الشخصى ، ونسى الأفغانى أن من تعاليم الإسلام أنه " ما إنتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه فى شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى ." (٥٠).

ولا يطالبه أحد بالكمال ، بل كان حسبه أن يصدر عنه ما يدل على أنه كان يقاوم شهوة الانتقام فى نفسه ولو مرة ، ويحاول أحيانا أن يكبح جماح غضبه ، وكان يجب أن يجعل جهوده من أجل إصلاح شئون المسلمين كما كان يقول دائما . وكيف ناقض نفسه ورأى فى الإنجليز أعوانا وأخذ يشجعهم على التدخل لعزل الشاه عن العرش ؟ لقد بدأ هنا وكأنه لا شأن له بالقضية الوطنية ولا بمقاومة الاستعمار ، وإنما هى محض أهواء شخصية . لقد سيطرت عليه شهوة الانتقام ، وغفل عن أنه هو الذى سعى إلى إثارة غضب الشاه عليه حين حاد عن نهج الإسلام فيما يجب أن تكون عليه علاقته بالرعية فأخذ يحدثهم بما ينزع الصبر من قلوبهم ويثير سخطهم على الشاه ، ويمهد لهم سبيل الخروج عليه ، وقد نهى الإسلام عن ذلك كما بينا من قبل .

---

(٤٩) المرجع السابق ص ٩٨ . ٩٩ .

(٥٠) هذا هو الجزء الأخير من حديث طويل روته السيدة عائشة رضي الله عنها ، وهو متفق عليه .

رأى الإسلام فى العفو عن الظلم :

نوضح الآن رأى الإسلام فى العفو عن الظلم فى الحقوق الشخصية وذالك لكى نقيم أولا خصومة الأفغانى للشاه وهل تمادى فيها أو التزم حدود الإسلام . وثانيا لكى نعرف موقع قوله هذا من الإسلام : "أنا أكره الظالم والمظلوم ، أكره الظالم لظلمه وأكره المظلوم لأنه يقبل الظلم ، ويصبح بهذا سبب جرأة الظالم ."

أولا : لابد أن نوضح أن العفو الذى يدعو إليه الإسلام هو العفو فى الحقوق الشخصية ، أما حرمات الله فلا بد من المحافظة عليها وعدم التساهل بشأنها وذلك تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان لا ينتقم لنفسه فى شئ قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى ، كما ذكرنا من قبل .

ولا يفوتنا أن ننبه أولا إلى الإسلام بدعوته إلى العفو لا يشجع بذلك على الظلم كما يظن البعض ، وإنما يجتهد في نشر حسن الخلق علي أوسع نطاق ممكن ، فرسالة الإسلام هي إتمام مكارم الآخلاق . وقد حذر الإسلام من الظلم أشد التحذير ، فقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في النهي عن الظلم وبيان العواقب الوخيمة للظالمين ، ثم دعا الإسلام في نفس الوقت الي العفو والصفح تقربا إلي الله وتساميا الي الدرجات العليا وتأسيا بمن مدحه الله بأنه علي خلق عظيم .

والإسلام في منهجه التعليمي والتربوي يرقي بالمسلم بطريقة تدريجية لا تشق عليه ، فينهاه أولا عن الغضب ، ثم يلزمه - إن هو أصر علي معاقبه ظالمه - أن يكون عقابه بالمثل تماما ولا يزيد عليه ، وإلا اصبح معتديا ظالما ، وفي نفس الوقت يحثه علي الصبر ويزين له العفو ، يقول تعالي : (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره عني الله) (٤٠ الشوري) ،ويقول أيضا : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) (١٢٦ النحل) ، ويقول أيضا :(وإن تعفوا أقرب للتقوي ولا تنسوا الفضل بينكم) (٢٣٧ البقرة) .

وهذا العفو لا يعد من قبيل الزينة الأخلاقية التي يمكن الاستغناء عنها ، بل هو في الإسلام ضرورة أساسية لابد منها لكل مسلم ، فما دامت الجنة لا يدخلها أحد بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، إذن لابد أن يعفو في الدنيا عن ظالميه حتي يستحق أن يعفو الله عنه ، وينبهنا الله إلي هذه القاعدة الهامة في قوله تعالي : " وإن تعفو وتصفحوا و تغفروا فإن الله غفور رحيم " (١٤ التغابن) . وفي قوله كذلك :
" وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم " (٢٢ النور).

ثم يقدم الإسلام رقيًّا أعلي من ذلك لمن لديه استعداد للصعود إلي هذه القمة ، وهي الإحسان إلي من ظلمه ، وذلك في تدرج حكيم يرقي بالنفس البشرية من أدني الدرجات الحسنه إلي أعلاها ، يقول الله تعالي : " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " (١٣٤ آل عمران) .

وهناك عدد من الأحاديث الشريفة في مجال العفو منها " ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله عزاً " (رواه أحمد) ، وجاء في جزء من حديث آخر رواه إبن حنبل أيضا " وأعف عمن ظلمك " وتوجد أحاديث أخري في هذا المجال (٥١) .

يتضح الآن أن الافغاني وكان معروفا بحدة الطبع كان بعيدا عن العفو والصفح ، وقد تمادي في خصومته للشاه ، والمعروف أن الدد في الخصومة من أشد الرزائل الممقوته في الإسلام ، لا سيما وأن الافغاني في خصومته للشاه كان قد أسهم إسهاما كبيرا في إثارة غضب الشاه ورجاله عليه .

ثانياً : مناقشة كراهية الأفغاني للمظلوم :

نستطيع الآن بعد أن أوضحنا رأي الاسلام في العفو والصفح في الحقوق الشخصية أن نقول إن قول الافغاني للايرانيين : " أنا أكره الظالم والمظلوم ، أكره الظالم لظلمه ،

---

(٥١) توجد أحاديث أخري في العفو والإعراض عن الجاهلين واحتمال الأذي ص ٢٣١ - ٢٣٣ من رياض الصالحين .

وأكره المظلوم لأنه يقبل الظلم ، ويصبح بهذا سبب جرأة الظالم " يدل علي أنه لم يكن يفهم رأي الاسلام في الظالم والمظلوم ، بل ولم يكن يفهم حقيقة أولية واضحة لا تغيب عن ذهن أي متأمل وهي أن المظلوم لا يقبل الظلم ولا يرضـي به ، وليـس العفو سببا لجرأة الظالم . فالإسلام بدعوته الي العفـو وحثـه علـي الصفـح لا يجرئ الظالـم علي الظلم ، وإنما هو داع الي مكارم الأخلاق كما ذكرنا .

يبدو أن الافغاني وهو الذي قرأ كثيراً عن الإسلام لم يفطن جيداً إلي مغزي قصة ابنيْ آدم اللذين ورد ذكرهما في القرآن ليعتبر بذلك أولوا الأبصار ، يقول تعالي :

(واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ." (٢٧ ، ٢٨ المائدة) .

أيكره الأفغاني هذا الابن المظلوم المقتول ؟ أكان وقوع الظلم عليه دليلا علي أنه رضي بالظلم ؟ لقد جاء في تفسير ابن كثير : " يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه اليه (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لاقتلك) أي لا أقابلك علي صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة (إني أخاف الله رب العالمين) أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بل أصبر وأحتسب . قال عبد الله بن عمرو : وأيم الله إنْ كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج يعني الورع . وقال الإمام أحمد حدثنا ... ان سعد ابن أبي وقاص قال عند فتننة عثمان:أشهد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :"إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خيـر مـن الساعـي " قال : أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إلي ليقتلني فقال : " كن كابن آدم " وكذا رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن . " (٥٢) .

---

(٥٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢ ص ٤٣ .

وقال ابن كثير ايضا : " وقد رواه ابن داوود من طريقه فقال حدثنا ... عن حسين ابن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد ابن ابي وقاص عن النبي صلي الله عليه وسلم في هذا الحديث قال فقلت : يا رسول الله أرايت أن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم " كن كابن آدم " وتلا (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) " (٥٣) .

في هذه التوجيهات من القرآن والحديث حكم وعبر كثيرة ، منها أننا لا ننبغي أن نظن أن المظلوم هنا سلبي ، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يدعونا إلي التأسي بقدوة سلبية ، بل هو إيجابي تماما ، إذ لم يغفل عن واجبه في نصرة أخيه الظالم بمنعه من الظلم كما جاء في الحديث الشريف ، فنجده قد قام بواجبه كاملا في هذا الشأن ، واجتهد في منعه من الظلم بكل السبل ، وإن كان أخوه لم يستجب له فذلك لا ينفي قيامه بواجبه ، فقد بين لأخيه سبب قبول قربانه " إنما يتقبل الله من المتقين " وهو بذلك يحثه علي الاجتهاد في التقوي لعله يصبح من المتقين بعد ذلك ، فيتقبل الله قربانه إن قدمه فيما بعد . ثم حاول بعث الخشية من الله في قلبه بقوله (إني أخاف الله رب العالمين) ، ثم حذره التحذير الرادع الأشد بأن ذكره بعاقبة القتل وهي عذاب النار وعقاب الظالمين ، (إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) (٢٩ المائدة) . فهو إذن قد أدي واجبه في نصحه وتحذيره ، ولم يكن سلبيا ولا مستسلما ، ولم يشجعه علي قتله بل نصحه ونهاه وحذره .

إن مثل هذه الدروس العظيمة التي يزخر بها القرآن ما كان ينبغي أن يغفل عنها جمال الدين الأفغاني ، بل كان ينبغي أن يتعلمها ويعلمها المسلمين " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " . ولكن حدة طبعه - تلك الحدة التي لم يحاول مراقبتها ولا معالجتها - جعلته لا يدرك أمورا دقيقة من توجيهات الإسلام منها أولا : أن المسلمين الصابرين

(٥٣) المرجع السابق ص ٤٣ ، ٤٤ .

علي الظلم ليسوا راضين به ، والدليل علي ذلك أنهم لا يمارسونه ، وإنما هم مترفعون عن معاملة الظالمين بالمثل ، متذوقون لقيمة الصبر ، راجون من الله أجراً بغير حساب

كما وعدهم : (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) (١٠ الزمر) . وهم بهذا أكثر فهما لروح الاسلام .

ثانياً : أن حدة طبعه منعته من إدراك الفرق الدقيق بين الرضي بالظلم والعفو عن الظلم ، فالذي يعفو منكر للظلم ، بل هو أبعد الناس عن الظلم ، فقدرته علي العفو تدل علي أنه فطر علي الرحمة والرأفة ، وهو في عفوه مطيع لله متقرب اليه بما يحبه. أما المنتقم في موضع يحسن العفو فيه ، فهو يثبت بإنتقامه أن فيه قدرا من القسوة والعنف ، وأن هناك إحتمالا كبيرا لارتكابه الظلم وإنه أبعد عن سماحة الخلق التي دعا إليها الإسلام في كل الأمور .

لقد إتضح الآن أن ما كان الأفغاني يحدث به الناس في هذا الشأن كان عكس ما دعا اليه الإسلام وحث عليه .

بقية العلاقة بين الأفغاني وناصر الدين شاه :

ونعود إلي استكمال ما حدث بين جمال الدين الأفغاني وناصر الدين شاه ، فقد ظل جمال الدين مشغولا بمهاجمه ناصر الدين شاه وحكومته . " وفي أواخر عام ١٣٠٩ سافر إلي اسطنبول بعد دعوة تلقاها من السلطان عبد الحميد ، وبعد وصول عدة رسائل من قاضي القضاه ، وقد أكرمه السلطان علي أمل الاستفادة من نشاطه ونفوذه في البلاد الإسلامية . وبعد قليل أرسل ناظم الدولة سفير إيران رسالة الي السلطان العثماني يبلغه فيها أن الشاه يري أن السلطان قدأتي بجمال الدين ليضر بمصالح إيران. ولكن السلطان رد عليه بقوله : إن رأيي في السيد هو نفس رأي الشاه ، ولكني أحضرته إلي هنا كي أمنعه من إثارة غضب العرب ، حيث كان الإنجليز يشجعونه علي

ذلك ، واطمئن ، فلن أدعه يقول أو يكتب شيئا يضر بمصالح إيران .

وفي اسطنبول اجتمع حول السيد جمال الدين الأفغاني جماعة من الإيرانيين المعروفين ، وبناء علي أمر السيد جمال الدين كتبوا رسائل ضد الشاه ، وأرسلوها إلي علماء الشيعة ، وقاموا بلصق الشعارات علي جدران المباني ببغداد ، وأرسل بعض علماء العراق هذه الرسائل والأوراق إلي الشاه . وفي شهر رجب سنة ١٣١٣ طلب الشاه تسليم السيد ورفاقه ، ولكن السلطان رفض تسليم السيد جمال الدين ، ومع هذا ظل السلطان دائما خائفا يتوجس منه شرا ، وقد سعي السعاة بالسيد لدي السلطان ، حتي ضاعفوا مخاوفة ، فعين له حراسا وجواسيس " (٥٤) .

وكان يلتف حول السيد دائما عدد من الإيرانيين ، يستمعون إلي كلامه وأحاديثه .

" ثم أنضم إليه رجل هارب من إيران يدعي ميرزا رضا كرماني . وكان يعرفه من قبل ، فلما سأله السيد عن سبب فراره قال له :

كنت أشتغل بالتجارة في طهران ، فاشتري كامران ميرزا أحد أنجال السلطان ناصر الدين مني بضاعة ، وطلب مني أن أذهب إلي منزله لقبض ثمنها ، ولكنه أخذ يماطلني ويحدد لي مواعيد مختلفة كانت تنتهي دون جدوي حتي مضت ثلاث سنوات ، فطلبت منه أن يعطيني البضاعة أو يدفع نصف ثمنها ، ولكنه رفض ، ثم لم يلبث أن أمر بضربي وحبسي ، غير أنني دبرت وسيلة للفرار من السجن والنجاة بنفسي ، وإن كنت نادما أشد الندم علي ما فعلت ، فقد ضاعت مني فرصة الأخذ بالثأر بعدما أصابني من ذل وخسارة وهوان . حقا لقد كان يجب أن أنتقم لنفسي من هذا الأمير الغاشم الغادر .

فقال له جمال الدين : وكيف كنت تنتقم لنفسك لو كنت في إيران ؟ فقال : كنت أقتل الأمير . فقال جمال الدين:فما الفائدة إذن من قطع الغصن مع بقاء الأصل ؟ إن الأولي اجتثاث الشجرة من جذرها . وقد تأثر ميرزا رضا بكلام جمال الدين غاية

(٥٤) يحيي آرين ور : ازصبا تانيما جـ ١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

التـأثر وصـمم علي العـودة إلي ايران وقـتـل ناصـر الدين . ولم يلبث أن عـاد إلي ايران خلسة ،ثم فقال له جمال الدين : ثم اغتال الشاه في ذي القعدة سنة ١٣١٣ هـ " (٥٥)

" وبعد قتل ناصر الدين شاه علي يد ميرزا رضا كرماني ، واعتراف ميرزا رضا بأن السيد جمال الدين قد لامه علي قبول الظلم ، ألحت حكومة إيران في طلب تسليم السيد ، ولكن علي الرغم من كل ما قامت به حكومة إيران من جهود ومحاولات سواء في طهران ، أو عن طريق علاء الملك سفير إيران المقيم في اسطنبول ، أخذت الحكومة العثمانية تتعلل بعدد من العلل ، وامتنعت عن تسليمه . " (٥٦) .

وظل السيـد جمـال الدين الأفـغـاني هناك ، وقـد ازدادت مـخاوف السلطان عـبد الحميد منه ، ولا سيما بعد أن علم أن السيد أبدي سروره عندما سمع بقتل ناصر الدين شاه ، وفي شوال سنة ١٣١٤ هـ . توفي السيد جمال الدين كما ذكرنا من قبل مناقشة

أراء جمال الدين في هذا الموقف :

أولا : رأينا أن جمـال الدين أمر جمـاعـة من الإيرانيين بكتابة رسائل ضد الشـاه وإرسالها إلي علمـاء الشـيـعة ، كـمـا أمرهم بلصق الشـعـارات في بغداد . ومـثل هذه الاعمـال لا تقدم أي نفع أو إصلاح لشئون المسلمين هذا فـضـلا عن إنهـا مـخالفة تمـامـا لتـعـاليم الإسلام في هذا الشـأن ، إذ أنهـا تؤدي إلي إثارة سـخط الناس والعلمـاء علي الشـاه مما يمهـد لإثارة الفتن . وكـان أولي به أن يحث العلمـاء علي تقـديم النصح للشـاه وتوجيهه إلي العدل والإصلاح .

ثانيـاً : نلاحظ أن مـا جاء في السطور السـابقـة من نصح جمـال الدين لميرزا رضـا كرماني مخالف تماما لصريح الكتاب والسنة ، حيث وردت آيات كريمـة - وقـد سبـق

---

(٥٥) لطف الله خان : جمال الدين الأسد آبادي (الترجمة العربية) ص ٢٣ . ٢٤ .

(٥٦) يحيي آرين پور : ازصبا تانيما جـ ١ ص ٣٧٨ .

ذكرها - تبين للمسلمين ضرورة الاقتصاد علي العقاب بالمثل إن هم أصروا علي العقاب ثم تدعوهم في نفس الوقت إلي العفو ، وتحثهم علي الصفح .

هذا إن كان الظالم أحد الأفراد العاديين ، أما إذا كان الظالم هو الحاكم ، أو أحد أفراد أسرته - كما في حالة ميرزا رضا كرماني ، فالواجب - كما مر في الصفحات السابقة - هو الصبر والتحمل تجنبا لإثارة الفتن التي حذر الإسلام منها أشد التحذير ، مع طلب حسن الجزاء من الله تعويضا عن الظلم .

ثالثا : نلاحظ أن جمال الدين قال عكس ما ينبغي علي العالم الإسلامي أن يقوله فهو لم يكتف بعدم نصح المظلوم بالصبر والتحمل ، بل دعاه إلي انتقام أشد وأفظع مما كان يريد عمله فقال له " فما الفائدة من قطع الغصن مع بقاء الأصل ؟ إن الأولي اجتثاث الشجرة من جذرها . " ولا شك أن هذه النصيحة تؤدي إلي إثارة الفتن ، وتعد بدعة سيئة مخربة ، ولو اتبعها المسلمون في تعاملهم مع الحكام لانتشرت الفتن، وانقلب المجتمع الإسلامي إلي مجتمع جاهلي يضرب بعضه رقاب بعض .

رابعا : لو فكر جمال الدين قبل أن ينصح نصيحته هذه ، لوجد أنه لم يحاول تربية رجال في إيران يخلفون الشاه ويحكمون بالعدل والإصلاح ، فأي نفع يعود علي المسلمين من قتل سلطان وتولي العرش سلطان جديد يحكم بمثل ما كان يحكم به السلطان السابق ؟

خامسا : من الواضح أن جمال الدين يبدو هنا غافلا تماما عن أحكام الله وشرعه ، فقد نصح وكأن الحياة الدنيا لا حياة بعدها يقتصّ فيها للمظلوم من الظالم . لقد غفل عن أن الله يعاقب الظالم أشد العقاب ، ويكافئ المظلوم ، ويوفي الصابرين أجرهم بغير حساب . كان أولي به أن ينهج منهج الإسلام ، فيبين لميرزا رضا العواقب الوخيمة لتنفيذ الانتقام الذي كان يريد القيام به ، ويحثه علي الصبر ، ويبشره بترقب جزاء حسن بغير حساب من الله ، وبدلا من أن ينصحه نصيحة مدمرة تقضي علي حياته ، ينصحه نصيحة إيجابية تحفظ عليه إيمانه ، وتحبيه حياة طيبة دنيا وأخري ، فيشجعه

علي أن يبدأ العمل من جديد لكسب قوته بتفاؤل وأمل وبقوة مستمدة من يقينه بأن الله مع الصابرين .

إن نصيحة جمال الدين لأنها لم تنبع من منبع الإسلام دمرت هذا المظلوم ميرزا رضا دنيا وأخري ، في حين أنه لو كان قد نصحه برأي الاسلام لأحياه دنيا وأخري ، ولقدم للمسلمين منهجا صحيحا ينتفع به كل من ينهجه ، ويجني ثماره الطيبة في الدنيا والآخرة .

لقد أوضحنا في الصفحات السابقة من هذا البحث الآيات والأحاديث ورأي علماء المسلمين فيما يجب علي العالم الإسلامي في مثل هذه الأحوال . ويتضح الآن أن جمال الدين لم يكن يعرف رأي الاسلام في هذا الشأن ، وإنما كان ينصح بما يوافق حدة طبعه وبغضه للشاه .